المثقـــف والسلطـــة

النموذج اليمـــني

د. عبدالعزيز المقالح(*)

يتألف هذا البحث من ثلاث ركائز تجمع من حولها مجموعة من المؤشرات الرامية إلى تحديد علاقة المثقف سلباً وايجاباً خضوعاً وتمرداً، وفي محاولة للبعد بهذاالبحث عن التنظير وتكرار الأقوال والتصنيفات المعقدة والمتشابكة في مثل هذه الابحاث سوف تعتمد اثنين من هذه الركائز الثلاث على قراءة وثائقية في تاريخ اليمن الحديث نسبياً والحديث.

وهذه هي ركائز البحث أو نقاطه الثلاث:

أولاً: المثقف والفقيه والسلطة.
ثانياً: المثقف الأديب والسلطة.
ثالثاً: المثقف السياسي المحترف والسلطة.

المثقف الفقيه والسلطة في أواخر القرن الثامن عشر:

بين فكر المثقف الحقيقي وفكر السلطة الظالمة تناقض طبيعي ورفض تبادل من أقدم العصور. لكن ذلك لا يمنع أن يقوم بين الفكرين جدل استثنائي يكون موضع اعتبار ونظر، كما حدث في أواخر القرن الثامن عشر لمحمد بن علي الشوكاني الشاعر والمؤرخ والمفكر والعلامة المجتهد الذي ارتبط اسمه بالإمام المنصور أحد طغاة عصره، وكيف استطاع شعاع الثقافة الصادر عن شخص الأديب العالم أن يذيب قسوة السلطة الوحشية المتجسدة في شخص الإمام الطاغية، وأن يجعل من مشاركته في الحكم وسيلة لاجتثاث رواسب التعصب والانغلاق، ومحاولة الاستفادة من الاقتراب من الحاكم بتوجيه خطاه إلى العدل وقمع الجاهلين والمتعصبين وأصحاب المصالح الذاتية.

وقبل الحديث عن هذا النموذج للمثقف الخارج من أقرب جذورنا التاريخية تجدر الإشارة إلى الرأي الذي أثبته الشوكاني عن بعض مثقفي عصره من خلال رصده لثلاث فئات من المتعصبين وهي:

أولاً: فئة الخاصة.
ثانياً: فئة العامة.
ثالثاً: فئة وسطى من الخاصة والعامة.

وقد أكد الشوكاني ان الفئة الأولى وهي «فئة

(*) رئيس جامعة صنعاء ـ اليمن.

الخاصة» يمكن أن تُشفى من داء العصبية وان تعود إلى حظيره الانصاف، وأن شفاءها من التعصب سهل، وميسور، وذلك من خلال إقناعها بالأدلة التي تقدم على الحجة القاطعة والتي إذا ما سمعوها عرفوا الحق واتبعوه. كما أن علاج الفئة الثانية وهي «فئة العامة» سهل وميسور أيضاً، فرياضة العامة بإرشادهم إلى التعليم ثم بذل النفس في تعريفهم ما هو الحق وإرشادهم إلى اتباعه واعتقاده.

أما الفئة الثالثة والتي تشكل فئة متوسطة بين الفئتين فهي - على حد تعبير الشوكاني -: العقبة الكؤود والطرق المستوعرة والخطب الجليل. وهو يرى انه من التعب الثقيل إرشاد طبقة متوسطة بين طبقة العامة والخاصة لأنها تتألف من قوم قلدوا الرجال وتلقوا علم الرأي ومارسوه وظنوا أنهم بذلك قد فارقوا طبقة العامة وتميزوا منهم، وهم لم يتميزوا في الحقيقة عنهم ولا فارقوهم إلا بكون جهل العامة بسيطاً وجهل هؤلاء مركّباً. وأشد هؤلاء تغييراً لفطرته وتكرير الخلقتين أكثرهم ممارسة لعلم الرأي وأثبتهم تمسكاً بالتقليد وأعظمهم حرصاً عليه، فإن الدواء قد ينجح في أحد هؤلاء في أوائل أمره أما بعد طول العكوف على ذلك الشفق به والتمعط له فما أبعد التأثير وما أصعب القبول لأن طبائعهم ما زالت تزداد كثافة بازدياد تحصيل ذلك، وتستفيد غلظته وفظاظه باستفادة ذلك، وبمقدار ولوعهم بما هم وشغفهم به تكون عداوتهم للحق ولِعْلم الأدلة وللقائمين بالحجة.

ولقد شاهدنا من هذه الطبقة ما لو سردنا بعضاً لاستعظمه سامعه واستنطقه، فان غالبهم لا يتصور بعد تمرنه فيما هو إلا مَنْصباً يثب عليه أو وريثاً يشاركه في ماله، أو أرملة يجادعها عن ملكها، أو فرصة ينتهزها عند ملك أو قاض فيبلغ بها إلى شيء من حطام الدنيا ولا يبقى في طبْعهم شيء من نور العلم وهدى أهله وأخلاقهم بل هم وأخلاقهم أشبه شيء بالجبابرة وأهل المباشرة للمظالم. ومع هذا فهم أشد خلق الله تعصباً وتعنتاً، ليس في أفهامهم فضلة لتعقل ذلك وتدبره، بل قد صار بعضها مستغرقاً بالدنيا. فإن قلت فهل بقي مطمع في أهل هذه الطبقة وكيف الوصول إلى إرشادهم إلى الإنصاف وإخراجهم عن التعصب قلت لا مطمع[1].

وهذا الرصد الشامل الدقيق الواعي دليل ناصع على اتساع دائرة التفكير عند عالمنا الفقيه المثقف الكبير، وهو أيضاً علامة واضحة على استيعابه الكامل لظواهر عصره الاجتماعية والفكرية. والرائع انه لم يكتف بتشخيص التعصب كداء يثقل ضمير الشعب وقواه العقلية بل تعدى موقف التشخيص إلى موقف العلاج. وكما كان الشوكاني عميقاً ودقيقاً في تحديد تلك الفئات ورصد مشاعرها وعوامل تعصبها فقد أوضحت مواقفه الأخرى أننا لسنا إزاء عالِم أصولي ومثقف متفقّه في أمور الدين والدنيا ولكنّا إزاء مفكر واسع الثقافة عالم باللغة وأسرارها. وعالم بالتاريخ ودارس للنفوس البشرية وأهوائها، ومن ذلك التحليل الرائع لتعصب كل من الدولتين الأموية والعباسية لأفكارهما والانتماء الضيق إلى الأسرة يحدد الشوكاني فهمه العميق للتاريخ وتأثير الحكام في طبع الرعايا على صورتهم. وفي النصيحة المثلى التي تقدّم بها إلى الإمام المنصور ودعوته القوية إلى لمّ شتات الشعب والوقوف صفاً واحداً في وجه الغزاة من خلال تطبيق العدل ورفع الجور وإلغاء الضرائب الجائرة التي تدفع المواطنين إلى استقبال الغزاة والترحيب بهم لأنهم لن يكونوا أكثر خطراً ولا أضر شأناً من الحكام الطغاة والمسؤولين اللصوص، ثم تلك اللمحة الذكية البارعة عن طبائع العرب وفخرهم بالأنساب واعتزازهم بمناقب السلطة. كل ذلك يثبت ما ذهبنا إليه من أننا نحس ونحن مع الشوكاني أننا مع مثقف ومفكر إسلامي من الرعيل الناضج الممتاز.

وهنا يأتي السؤال المؤجّل من بداية البحث وهو، إذا كان الشوكاني في هذا المستوى من المعرفة وعلى هذا المستوى من الشجاعة والاستعداد للتضحية فلماذا قبل ان يكون وزيراً في حكومة الإمام المنصور أو قاضياً لقضائه مع علمه أن انضواء العالم تحت سلطة الحكم تكوّن أكثر ضرراً على الإسلام من انضواء غيره من الأفراد؟ ونحن نترك الاجابة عن هذا السؤال لمثقف ديني معاصر هو الإمام الخميني الذي تحدث كثيراً في كتابه (الحكومة الإسلامية) عن فقهاء السلطة وفقهاء الحيض والنفاس أولئك الذين يوجهون أكبر لطمة للإسلام، ويشكلون أكبر خطر عليه ويبرزون الإسلام بصورة مشوهة كأقصى ما يكون التشويه، وفقهاء السلطة وفقهاء الحيض والنفاس هم الدين العادل لبقية المثقفين من عبيد السلطة المتهافتين على المناصب. وقد تحدث الخميني في كتابه المشار إليه عن نوعين من العلماء أو المثقفين الدينيين الذين يلجأون إلى مداراة السلطة وهم العلماء أو المثقفون «المتقون» أو المتمسكون بنظرية التقية، والعلماء أو المثقفون الذين يستطيعون توجيه الحاكم واصلاحه أو يهدفون من وراء تعاونهم مع نظام ما إلى القضاء عليه وتفتيته من الداخل. وهو لا يرى أن يتمسك العلماء بالتقية تمسكاً كاملاً أو حرفياً، فقد شرعت للحفاظ على النفس أو الغير في مجال فروع الأحكام. وهو يقول: إلا إذا كانت ظروف التقية تلزم أحداً منا بالدخول في ركب السلاطين، فهنا يجب الامتناع عن ذلك حتى لو أدى ذلك إلى قتله، إلا أن يكون في دخوله الشكلي نصر حقيقي للإسلام وللمسلمين، مثل دخول علي بن يقطين، ونصير الدين الطوسي. وطبيعي أن يسمح الإسلام بالدخول في أجهزة الجائرين إذا كان الهدف الحقيقي من وراء ذلك هو الحد من المظالم أو إحداث انقلاب على القائمين بالأمر، بل إن ذلك الدخول قد يكون واجباً، ليس عندنا في ذلك خلاف، إنما الكلام فيمن دعته بطانته واستهوته الحياة الدنيا، وباع آخرته بدنيا غيره.وزين له الشيطان سوء عمله، فعمل في صفوف الخونة من الحاكمين وأيدهم وآزرهم وسار وراءهم والله على ما يعمل ويقول شهيد[2].

الدخول إذن في أجهزة الحكم حتى الجائر منها واجب في نظر المؤسسة الدينية الجديدة، إذا كان ذلك للحد من المظالم وتخفيف الجور عن المحكومين، وهذا عين ما توخاه الشوكاني بقبول المنصب الرسمي، لم يكن يهدف إلى جمع ثروة فهو غني بعلمه وفكره، ولم يكن يطمح في احداث انقلاب أو الاستيلاء على السلطة، فالحكم بكل أشكاله من الأمور التي لم تخطر له على بال، لقد كانت العلوم شغله الشاغل. وكان القضاء على التعصب الديني وإقامة الإنصاف بين الناس هما الهدف الأكبر والأسمى في نفس ذلك المفكر الرائد، وقد استطاع باقترابه من السلطة أن يحافظ «على أقل تقدير» بين المتعصبين لمذهب معيّن وبين اتباع بقية المذاهب، وتمكن في بعض الفترات أن يوجه الضربات الحاسمة إلى صدور بعض المتعصبين الذين جعلوا من مدينة صنعاء مسرحاً للإرهاب والفتنة عندما كانوا يطاردون الطلائع المتحررة ويحرقون بيوت العلماء أو الخطباء الذين يجاهرون بحرية الفكر والاعتقاد وينادون بالاجتهاد والتحرر من عبادة السلف. لقد تمكن الشوكاني من خلال منصبه أولاً، ومن خلال علاقته الجيدة بالحكم أن يصد خطر هؤلاء المتعصبين ليس على الحكم وإنما على الإسلام.

وما أكثر المواقف التي أعلنها هذا العالم والمثقف الكبير في وجه دعاة التعصب والجمود، وفي وجه من أسماهم بوزراء الفتنة من أعمدة السلطة الجائرة. وقد أثمرت تلك المواقف الخالدة صفوة مستنيرة ترفض الكهنوت وترفض تقسيم المسلمين إلى رجال دين

ورجال دنيا، وتؤمن بأن الاسلام دين يـرفض الواسطة بين الانسان وخالقه، دين لا مكـان فيه لمؤسسـة دينية أو مـراجع مقـدسة تمنـح صكوك الغفـران إلى جماعـة وتمنعها عن آخرين.

ولأن هذا الفهم العميق للإسلام قد أضاء وجدان الشـوكاني وتجسـد في سلوكه اليـومي فقد أعـد نفسـه للنتـائـج التي يمكن أن يـوفق فيهـا مثــل هـذا الفهم العميق، وكـان على درايـة تامـة من أن خصـومـه لن يتركوه في نهجه سالماً، لذلك فقد وَطّن نفسه على تقبل أقسى النتائج، وهـذا ما جعله ينصـح كل تلميـذ من تلاميذه وكل طالب علم صادق الغاية واضح الهـدف بـالكلمات المضيئة التـالية (هـب صـدق مـا حـدسته ووقوع ما قدرته وحصول المحنة عليـك ونزول الضرر بـك، فهل أنت كـل العالم وجميـع الناس؟! أم تـظن أنـك مخلد في هذه الـدار؟)[3] إن كـل شيء في سبيـل انتصار القضية يهون وموت المناضل لا يعتبر موتاً لكل البشر ثم إن أحداً كما يقال، لا يخلد في هذه الحياة.

هذا نموذج للمثقف العربي في القرن الثـامن عشر، وقـد كان كـما سلفت الإشارة شـاعراً ومؤرخـاً وعالمـاً مجتهداً، وعندما دعته السلطة لبّى نـداءها غـير خائف ولا مـتردد، وكـان في السلطة ـ كـما يقـول مؤرخــو عصره ـ كما كان خـارجها نموذجاً للإنسان المسؤول، وقد أجمل في مـذكراتـه الأسباب والحيثيـات التي أدت إلى سقوط العلماء وزهد الناس فيما عندهم (ومن هذه الحيثيات تنازل منصب العالِم وتهاون الناس به، لأنهم يـرون رجلاً قـد لَبِسَ لُبْسَ أهـل العلم وتـزيا بـزيهم وحضر مجـالسهم، ثم ذهب إلى مجالس أهـل الدنيـا، ومن لهم قدرة على إيصال أهل الأعمال الدنيوية إليهـا من وزير أو أمير فتصاغرهم وتذلل وتهـاون وتحقر حتى يصير في عداد خدمهم ومن هو في أبوابهم، ثم أعطوه منصباً من المناصب فعمـل على مـا يريـدونه منـه وإن خالف الشرع واعتمد ما يرسمونه له وإن كان طاغوتاً بحتاً. فيظن من لا عِلْم عنده بحقائق الأمور أن أهل العلم كلهم هكـذا، وانهم ينسلخــون من العلم إذا ظفروا بمنصب من مناصب هذا الانسلاخ، ويمسخون هـذا المسخ، ويعـود أمرهم إلى هـذا المعاد فيـزهد في العلم وأهله، وتنفـر عنه نفسـه وتقل رغبتـه، أو يؤثر الحرف الدنيوية عليه ليربـح السلامـة من المهانـة التي رآها نازلة بهذا المشؤوم الجـالب على نفســه وعلى أهله ما جلب العلم من الذل والصغار، وإذا كان قد خبأه هؤلاء النَّوكاء على العالم وأهله بالغاً إلى هذا الحد عند سائر النـاس فما ظنـك يعتقده فيهم من يـطلبون منـه المنصب بعد أن شاهد منهم ما يشـاهده من الخضـوع والذلة والانسلاخ عن الشرع إلى ما يريدونه منه وبذل الأمـوال لهم على ذلـك، ومهاداتهم بـأفخر الهـدايـا، والوقوف على ما يطلبونه منه على أي صفة تراد منهم، يضــاف إلى هــذا خلوهم عن العلم ومـهلهـم لأهله الذين هم أهله لما يشاهدونه عليهم من الهيئة واللباس الفاخر الـذي لا يجدونـه عند المشتغلين بـالعلم. فهل تـراهم بعـد هـذا يميلون إلى مـا يقـولـه أهــل العلم وينـزجرون بمـا يوردونـه عليهم من الزواجـر الشرعية المتضمنـة لانكار مـا هو منكـر والامر بمـا هو معـروف والتخـويف لهم عن مجاوزة حــدود الله؟ هيهـات أن يصغـوا لهـذا سمعـاً أو يفتحوا لــه طـرفـاً فـإلى الله المشتكى!!).

ولم يكن هـذا الهجوم الـذي تضمنتـه مـذكـرات الشـوكـاني ضربـاً من تحـذيـر الفقهـاء ـ وهم مثقفــو عصره ـ من الاقتراب من أبواب السـلاطين أو التعلق بـأوهام السلطة وإنمـا كـان ضربـاً من الهجـاء المـريـر للطامعــين في المنـاصب ومحــاولـة لــردع العلماء عن السقوط في مستنقع السلطة.

المثقف الأديب... والسلطة (35-1948):

حـاولت في القسـم الأول من هذا البحث أن أقـرأ

في أوراق المثقف الفقيه الذي استطاع في أواخر القرن الثامن عشر ـ أوائل التاسع عشر تحويل السلطة الإمامية الفردية من داخلها، وأن يضرب بيد الشعب والعدل زملاءه الوزراء وينظمهم بسلوكه الانساني النقي، وتمكن، وهذا هو الأهم، أن يقترب من السلطة بهدف تطورها دون أن يحترق بنارها، ولعل العامل الأول في نجاة ذلك المثقف الفقيه يعود إلى وعيه بخطر السلطة ووعيه بمسؤوليته الاخلاقية والوطنية. وفي هذا الجزء قراءة في أوراق المثقف الأديب المعاصر الذي ارتبط وجدانياً بالمثقف الفقيه ونهل من آثاره قبل ان ينهل من ثقافة العصر ما جعله يراه مثلاً أعلى.

والمثقف الأديب في تاريخ اليمن الحديث ليس واحداً، انه رعيل من المثقفين الأدباء أو الأدباء المثقفين ظهروا في أواخر الثلاثينات وحاولوا شأن كل رعيل مستنير أن يصلحوا أوضاع السلطة الإمامية الفردية، فكان السجن جزاء لهم كما نالهم جزاء آخر أشد وأنكى من السجن ويتمثل في تهمة غريبة مؤداها أنهم «اختصروا القرآن!!» وهي تهمة سرعان ما انطلت على الناس البسطاء الذين خرجوا مطالبين برؤوس الملحدين الذين يريدون اختصار القرآن. وعلى رأس هؤلاء الناس وفي مقدمتهم كانت أسر المساجين انفسهم وقد وصل الحال بأم أحدهم أن تذهب إلى الإمام لا لكي تطلب منه العفو لابنها الثائر المظلوم وانما لكي تطالبه بقتله انتقاماً لما صنعه في حق القرآن (هذه ليست أسطورة بل حقيقة تاريخية).

وعندما أدرك الإمام أو بالأصح أدركت السلطة أنها قد حققت الغرض من إطلاق التهمة الغريبة بدأ الإمام يساوي السجناء ويبعث إلى السجن من يقول لهم بأن كل شيء في البلاد قد أصبح ضدهم حتى أمهاتهم، وأن الإمام وحده في هذه الحالة هو الذي يستطيع أن ينقذهم من الموت إذا تراجعوا عن مواقفهم الوطنية. ولم يكن أمام ذلك الرعيل سوى أن يطوي رغبته في الإصلاح وأن يهادن السلطة إلى حين.

ويؤرخ الاستاذ الشهيد محمد محمود الزبيري[4] هذه المرحلة من تاريخ اليمن من خلال تجربته كواحد من ذلك الرعيل ومما جاء في نطاق تلك التجربة:

(كانت طليعة الشباب الأحرار اليمنيين قبل الحرب العالمية واثناءها يقتحمون بأفكارهم الشابة المتفتحة عالماً ضخماً معقداً جديداً عليهم، مليئاً بالألغاز والاحتمالات والمتاهات. هم ينتمون ببيئتهم وأسرهم، ومجتمعهم، وعواملهم الوراثية، ودولتهم إلى ما قبل خمسمائة عام أو تزيد، ولكن كتب عليهم أن يفتحوا أعينهم على عصر آخر غير العصر الذي ينتمون اليه، وأن يكونوا جسراً يعبر الشعب عليه، ويقطع مسافة قرون طويلة، وتلك رسالة من أصعب الرسالات التي يتحملها جيل من الأجيال.

إن هذا الجيل المخضرم لا يستطيع أن ينهض إلا إذا نجح في أمور ثلاثة: ـ

الأول: أن ينضج فهمه، وانتماؤه لروح شعبه، وروح العصر القديم الذي ينتمي إليه شعبه نضجاً تاماً.

الثاني: أن يتغلغل فهمه إلى روح الحضارة الحديثة لا أن يعيش على السطح منها.

الثالث: أن تكون عنده نزعة روحية ترتفع به فوق مستوى أهوائه الذاتية، ومنافعه المادية، لكي تكون هذه النزعة بالنسبة إليه كمحطة للفضاء التي يراد لها أن تكون مرحلة بين الأرض والقمر... فرغم أنها تنتمي إلى الأرض ونواميسها عموماً، وتضحي في سبيلها فانها تتسامى إلى فوق مستويات حياتها الروتينية الجامدة، كما هي لا تنحدر إلى جاذبية القمر، وإن كانت تدنو منها، وتراها كما لا يراها أهل الأرض، وبغير مثل هذا التسامي لا يستطيع الجيل

المخضرم أن يقاوم عوامل الضغط الهائلة من عالمين اثنين:

عالم شعبه المغرق في القدم الذي تسوده نواميس الموت والتحجر، وعالم الشعوب العصرية الحديثة التي تلوح له بسحر حياة لا يستطيع أن يحياها بطريقة طبيعية كما هي، مهما تكلف وتكيف، ولو عاشها فانه دون شك سيعيشها إنساناً غير متكامل لأنه سيكون مخلوقاً شائهاً ينقصه الضمير وينقصه الخلق أيضاً.

وبدون شك فان فهمه لروح شعبه الذي ينتمي اليه يقتضي فهماً كاملاً لظروفه السياسية والاجتماعية والدينية، وإذا استثنينا شؤون الدين الذي توجد مراجعه في الكتب، فإن جميع الظروف الأخرى السياسية، والاجتماعية ظروف غامضة منغلقة على نفسها، وعلى أهلها، ولا يستطاع حل ألغازها، وفتح مغاليقها، واكتشاف نواميسها، إلا عن طريق التجربة والتعامل مع القوى السياسية التي تمثل سلطان القديم كله إلى جانب دراسة روح الشعب عن طريق ممارسة الحياة التي تحياها الجماهير ممارسة صادقة عميقة، لا ممارسة مسرحية.

فمن خلال الحس الوطني العميق لمعنى المهمة، التي كتب على الشباب قبل عشرين عاماً (كتب الشاعر تجربته في أواخر الخمسينات) ان يضطلعوا بها، مارسنا التجربة الحية على الطبيعة، ونبشنا ركام شعبنا، وحطام تاريخنا، ورواسبنا إلى الأعماق.

لقد كانت التجربة الأولى هي تجربة الرعيل الأول من رفاقنا، نبع فريق منهم من الأرض اليمنية عن طريق المطالعات للكتب الحديثة، ووفد آخرون عائدين من بغداد بعد أن أنهوا دراستهم العسكرية. كانت تجربتهم التبشير بأفكار عصرية بحتة ونقلها إلى شعبهم كما هي، وهو شعب - كان - لم يعرف أي شيء عن العصر الحديث، وكان لهذا الاسلوب رد فعل شعبي ورسمي مضاد، وشاعت عنهم حكاية الاختصار للقرآن كذباً وبهتاناً، ولكنها شاعت لأنهم لم يتخذوا الاحتياطات ضد قبول مثل هذه الاشاعات. وكان كل هذا شيئاً طبيعياً، لانها التجربة الأولى، وسهل على الحكم الرجعي أن يلغي وجودهم بالسجن، وكان الشعب يطلب ما هو أكثر من السجن. ولم يستطع الشباب بمجرد هذه التجربة أن يكتشفوا معدن الحكام على حقيقته.

تدارسنا هذه التجربة بعد الرعيل الأول - فأدركنا أنه لا يتم عمل ولا تقدم ولا تنجح دعوة عن غير طريق الدين الذي يستمد الحكام منه سلطتهم، وقلنا أنه لا بد لنا من إحدى الحسنيين. فإما أن يسمح الحكام للفكرة بالانتشار فهو النجاح السلمي على مستوى الحكومة والشعب معاً، وإما أن يرفضوها ويقاوموها وهي دعامة حكمهم مضطرون لهدم هذه الدعامة ويصبح حكمهم بغير أساس.

ولكننا وجدنا أنفسنا في السجن رغم هذا التكتيك، ووجدنا الشعب يتخلى عنا. ورأينا أن تحجرّه وانصياعه لحكامه أبعد مما تصورناه.

ورأينا ان التاريخ سيحكم علينا بالتهور والتسرع إذا لم تكرر التجارب بطرق أكثر ليناً، فالعامل الانساني يجب أن يراعى حتى بالنسبة الى حكام يسيطرون على مقدرات الشعب.

والله سبحانه وتعالى يقول لموسى وهارون عليهما السلام. وهو يبعثهما إلى فرعون «وقُولا له قَولاً ليّناً لعله يتذكّر أو يخشى».

ومن هنا نشأت فكرة التضامن للعاصفة بعد أن وجدنا أنفسنا سجناء «جبل الأهنوم»، وظهرت الثقة بمقدرة الشِّعر على إقناع الحكام بأننا لسنا أعداء بل إننا أبناؤهم البررة. وإننا على استعداد لأن نكون كسائر أفراد الشعب مستمعين مطيعين، نراهم كما يراهم الناس.

والهدف من ذلك إعادة التجربة بأسلوب يحفظ

على الحكام كبرياءهم، حتى إذا كانت الكبرياء هي التي تحول دون تسامحهم مع نشاطنا المرجو، فإننا نكون بهذه المداراة قد ساعدناهم على أن يكونوا طيبين معنا.

وقد نجح الشعر هنا في إقناعهم بأننا لسنا لهم بالاعداء فأطلقوا سراح البعض بعد تسعة أشهر، ولكنهم ظنوا أننا سوف نرضى عنهم، ونتعايش معهم بمجرد أن يغدقوا علينا من أموال الدولة ومناصبها، فلم يتغيروا بعد إطلاقنا من السجن في شيء ما غير الاستعداد لمساومتنا من الناحية الشخصية.

وبذلك انتهت مدة تجربتي مع الامام يحيى بالذات بعد أن أدركت بعمق وبيقين أنه يعادي كل تطور، وكل اصلاح وأنه لا ينفع معه رفق، ولا لين، ولا استعطاف ولا ثناء، إذا كان المطلوب منه أن يحقق إصلاحاً، ولو على الأسس الدينية.

لقد كانت تجربة خصبة عميقة كسبنا منها الأساس الأول للثورة، وهو اليقين باستحالة تغيير الإمام يحيى عن غير طريق القوة.

ولم يكن هذا اليقين الثوري ليحصل إلا بعد المرور على كل هذه التجارب، وأهمها في رأيي استعطاف الشعر بكل ما له من تأثير عاطفي شديد.

إن محاولة إقناع الامام يحيى بواسطة الفكر الديني ثم المدائح الشعرية التي قدمت إليه في هذه المرحلة التجريبية كلها تعتبر وثائق تاريخية، تدل على المحاولات الجادة لإقناع الإمام بالحكمة، وبأرق الوسائل الودية كي يسمح بالتطور الاصلاحي المنشود، ولا يستطيع أحد في المستقبل القريب أو البعيد أن يزعم بأن الامام يحيى عارض الاصلاح خوفاً على الدين، فإن التجربة قدمت نفسها كدين، أو يزعم بأنه تشدد واستبد، وأصر على طغيانه لأنه صدم شخصياً، أو جرح كبرياؤه، فالشعر شاهد حي سيبقى برهاناً تاريخياً على أن الامام يحيى ـ الذي لقي مصرعه بعد سنوات قليلة من المدائح والاستعطاف ـ كان قد أعطي أكثر مما يستحق من الثناء والاحترام، وأتيحت له الفرصة، ووفرت له الكرامة، وقدمت إليه الأفكار، والنصائح في جو من الود، والاستعطاف، والإكبار، لا يدع له مجالاً للتعليل والاعتذار، وأنه بإصراره، رغم كل ذلك وعناده، واستبداده، يعتبر المسؤول الذي جعل الخلاص منه بالقوة هو الطريق الوحيد، الذي لا طريق سواه.

أنا أعرف أن الذين يعيشون في ثورة اليوم، ووعي اليوم من شباب اليمن بالذات يضيقون من محاولاتنا لتبرير الثورة على الامام يحيى، فهي قد أصبحت من البديهيات. ولكن اذا كانت الأمور بعد عشرين عاماً تبدو لنا واضحة جلية، ويبدو فيها وجه الحق بيناً ساطعاً. فهي لم تكن كذلك من قبل.. كان كل ما في اليمن يبدو مشوشاً غامضاً مظلماً، بل كان عالماً من الألغاز، والطلاسم والمتاهات.

وكان إحساسنا المزدوج المضطرب بين العالم القديم والجديد، وكانت حيرتنا بين طقوس العبودية التي يعيشها جيلنا يومئذ، وبين مثل العصر الحديث الذي تسللنا إليه مبهورين ذاهلين، كل ذلك يفرض علينا مسؤولية التحقق بأنفسنا، وبالتجربة الحياتية الذاتية من الأمور الآتية:

1 ـ هل الامام يحيى بطل قومي، تزعّم الثورة ضد الأتراك وتربّع على العرش لأهداف سامية كما كانت سمعته الخارجية والداخلية تزعم له ذلك[5] ...؟

2 ـ هل الامام يحيى الذي تزعم الثورة ضد الاتراك صالحٌ لتزعم ثورة تطورية. ولو مترفقة بطيئة متزنة تجنب الشعب آلام المخاض الثوري العنيف؟

3 ـ هل الامام يحيى رجل قابل للأخذ والرد والتفاهم مع الناصحين المتوددين أم أنه عنيد مستبد، متأله، يرفض أن يعطي أحداً حق النصح، والمشورة، وإبداء الرأي.

4 ـ هل العزلة، والتأخر، والفساد في اليمن آتية تلقائياً لعوامل تاريخية، وجغرافية، دون أن يكون للحكام دور أساسي في تجميدها، وحمايتها أم أن للحكام دوراًيتحملون جزاءه ومسؤولياته؟

5 ـ هل عند الامام يحيى نزعة الاستبداد والتسلط والإصرار على خنق الشعب أم أن الشعب هو الذي يخنق نفسه، ويرفض الحياة والتطور؟

6 ـ هل كان يمكن أن تتطور البلاد سلمياً، وبالتدريج وبالتفاهم مع الامام يحيى والتودد إليه، أم لا بد أن يأخذ التطور طابعاً ثورياً لا هوادة فيه؟

7 ـ ومن جهة أخرى، هل كان الشعب مستعداً أن يجابه الامام بمطالبه، ويقف مع الاحرار، دون أن يسلمهم اليه، ويتركهم تحت رحمته، ويبرر كل تصرفاته الاستبدادية . . . ؟

لا شك اننا لو أغمضنا أعيننا، وألغينا من تاريخ اليمن الحديث هذه الفترة البدائية من محاولات الشبيبة اليمنية، واحتكاكها بالامام توجيهاً، وتبشيراً واستعطافاً، ومدحاً وتطرفاً، واعتدالاً، وسجوناً، أو أغلالاً.

ثم بدأنا استعراض التاريخ فقط منذ أعلنت الحركة المعارضة العنيفة من عدن، والقاهرة، التي أدت أخيراً إلى مصرع الامام يحيى، وبعض بنيه، ورجاله، ثم إلى فشل الحكم الثوري الدستوري، والمذابح البشعة، والفتن، والنهب، والسلب، والخراب، والدمار،

ثم ما أعقب ذلك كله من حكم الامام أحمد الرهيب، لو فعلنا ذلك لما استطعنا أن نفهم المبرر العادل للاعمال الثورية العنيفة، بل ولحكمنا على الاحرار بالتهور، والمجازفة بالارواح والاموال، والمصائر، وافتعال ثورة لا ضرورة لها، ولا يقين فيها.

ولقد كان شعر المدح في هذه الفترة البدائية هو الرائد والمستكشف الأول، وهو المجس العميق الدقيق الذي تغلغل إلى أغوار نفس الامام، وأعطانا المقاييس، والمعايير لتقدير الحد البعيد الذي ذهب اليه الطاغية من التأله، والقسوة، والاستعلاء، والاصرار.

وبالنتيجة الحتمية كان الشعر هو الذي أعطانا القدرة على الانتقال النفسي من مرحلة إلى مرحلة، وهز مشاعرنا، ورواسبنا، وتلكاتنا، ومخضها مخضاً وأشعلها وصهرها، وحولها إلى يقين ثوري عميق أصيل.

إن تجربة الشهيد الزبيري، وهي نفسها جزء من تجربة زملائه من مثقفي الثلاثينات والاربعينات، هي التي دعاها بتجربة البحث عن اليقين الثوري تشكل بأبعادها المختلفة صورة غرائبية لعلاقة المواجهة بين المثقف والسلطة وتبين إلى أي مدىانحدرت السلطةفي يمن الثلاثينات والاربعينات بالمقارنة بسلطة القرن الثامن عشر. ومن المهم ـ بعد ذلك ـ أن يدرك القارىء ان الصراع بين المثقف الأديب والسلطة قد انتهى إلى محاولة تغييرها أو تجاوزها وقد تم ذلك في شكل انقلاب وطني بدأ باغتيال الامام يحيى واقامة نظام حكم دستوري لم يكتب له النجاح لكنه كان التمهيد الذي لا بد منه للتغيير اللاحق الذي صنع ثورة سبتمبر 1962 ووضع الإمامة في متحف التاريخ.

الحواشي

(1) محمد بن علي الشوكاني: أدب الطب: ص 47
(2) الإمام الخميني: الحكومة الاسلامية: ص 142-143
(3) محمد بين علي الشوكاني: أدب الطباب: ص 47
(4) ديوان محمد محمود الزبيري: الاعمال الكاملة: ص 65
(5) كان كثيرون من قادة العرب الاحرار يرشحون الامام يحيي لقيادة الأمة العربية الواحدة والتحرر وكان ياسين الهاشمي من رؤساء الوزارة العراقية يرى أن تكون اليمن قاعدة النضال العربي ومنطلقه، لأنها أول دولة عربية استقلت.